

حديقة أبيقور

حديقة حقا هذا الكتاب الذى ألفه «اناتول فرانس»

وترجمة الاستاذ محمد عبدالحليم محمود وراجعه الاستاذ الدكتور عبدالحليم محمود.

ولد أناتول فرانس فى باريس سنة ١٨٤٤، وكان والده بائع كتب، فنشأ فى جو منعم بعصارة الثقافة الفكرية قديمها والحديث. وكان بطبيعته طلعة شغوبا بالقراءة مثله فى ذلك كمثله الجاحظ الذى كان يبيت أحيانا فى دكاكين الوراقين يلتمس منها كل ما تقع عليه عيناه ثم عمل موظفا بمكتبة مجلس الشيوخ فارتوى منها عللا بعد نهل.

هل اختارى لهذا الكتاب، لون من رد الجميل فقد دافع اناتول فرانس عن المرأة حتى حين أبت المسيحية على المرأة أن تكون من هيئة الاكليروس، لأنها ترهبها وتظهر خطرها للعيان، فتردد قائلة مع سفر الجامعة:

«إن ذراعى المرأة كمثله شرك الصيد» ثم هى تحذرنا من أن نعلق أملنا على المرأة: «لا تعتمدوا قط على قصبة تميل بها الريح حيث تميل، لا تضعوا فيها ثقكم فكل جسد كالحشائش، ومجده يذهب ويذبل كما تذبل أزهار الحقول».

بل تخشى المسيحية وترهب مكر (كل مكر يتضاءل إذا ما قورن بمكر المرأة).

يقول اناتول فرانس معلقا (ذلك الخوف وتلك الرهبة كان من شأنهما إظهار المرأة فى ثوب من القوة والجبروت). بل يقول فى طرافة لا نخطئها:

لقد ضاقت الكنيسة ذرعا بجمال كليوبطره ولايس والجميلات فاعتبرتهن سادة من سادات جهنم.. وباله من مجد! إن أشد النساء تواضعا وأكثرهن زهدا وأبعدهن عن الرغبة فى تعكير صفو أى إنسان، ليحلوا لها أن تكون قادرة على تعكير صفو الحياة عند بنى البشر أجمعين. وإن كبرياءها ليفتبط بما تتخذه الكنيسة ضدها من الحيطه والحذر.. ألم يأتك نبأ القديس أنطوان المسكين وهو يصرخ فيها قائلا «اغربى عنى أيتها الحيوانه! لكن فزعه هذا يرضيها ويروقها، فهى تسعد بأن ترى نفسها من الخطورة بمكان لم يكن يتطرق إليه ظنها.

ويتطرق أناتول فرانس من هذا إلى نشيد يرققه بين يدي المرأة في حب يذكرنا بقصائد الشبابي ومحمود حسن اسماعيل في المرأة. يقول مفتونا:

هل أتاك نبا القديس جيروم؟ أعلمت أنه، في روما وفي آسيا قد استولى على قلبه الرعب والفرع منك فهرب إلى حيث يكون بمنأى عنك، إلى صحراء قاحلة رهيبة يتغذى فيها من الجذور، وتلفحه الشمس بشدة وعنف، حتى لم يعد إلا جلدا أسود على هيكل من عظم، ولكنه، وباللهول، وجدك في منفاه، ولم يهرب منك إلا إليك، فامتلاأت وحدته بالصور الذهنية عنك، تلك الصور التي أضفى عليها الخيال جمالا وسحرا فأصبحت فتنة ليس لها في عالم الواقع مثيل.

هي حقيقة كثيرا ما جرى بها الرهبان فلان ما توحين به من أحلام أعظم فتنة، إذا كان ذلك ممكنا، من مثالك في عالم المحسوس. فكان جيروم ينفر من خيالك في هلع كما كان ينفر منك.. بيد أنه عشنا حاول أن يتخلص من تلك الفتنة بالصوم والصلاة، فقد ملأت حياته - التي طردك منها-، بالأخيلة والأحلام.

ذلك هو سلطان المرأة على قديس، ومن المشكوك فيه أن يصل إلى هذه الدرجة بالنسبة لشخص من رواد ملهى «الطاحونه الحمراء» بباريس فحاذرى إذن ياسيدتى من أن يذهب بعض سلطانك بذهاب الايمان.

أتريد الصراحة؟ إنى لا أرى أن مذهب العقليين نافع لك. ولو كنت مكانك لما أحببت قط هؤلاء العلماء الفزيولوجيين «علماء وظائف الأعضاء» فانهم فضوليون يشرحون من أحوالك أكثر مما يجب فيزعمون أنك مريضة عندما نعتقد نحن أنك ملهمه، ثم يعمدون إلى الملكة الراحلة، ملكة الحب والألم التي هي من مزاياك فيطلقون عليها اسم «سيطرة الحركات المنعكسة». ما أبعد الفرق بين هذه النغمة في الحديث عنك وبين نغمة «القصة الذهبية»! فأنت فيها «الجماعة البيضاء» سوسن الطهارة، وردة الحب». وهذه الألقاب التي تضيفها عليك القصة الذهبية لاشك أجمل ولطف من أن تسمى «هستيرية، خيالية وهمية، مصابة بالصرعة» الخ هذه الأسماء التي أصبح الناس يدعونك بها يوميا منذ أن انتصر العلم.

أناتول فرانس في هذا الموضع يذكرنى بذلك العاشق الذي أخذ يتغنى بمحبوبته امام صديقه العالم (واحد من علماء وظائف الأعضاء) أو واحد من علماء البيوكيمستري.

ويقول: من أى شىء خلقت من نور القمر؟ من جمال الورد؟ من رقة الياسمين؟ من... من... من.. الخ

فرد عليه صديقه خلقت من الماء والمعادن والأملاح...
فعكر عليه صفو الخيال.

أعود إلى اناتول فرانس المستمر فى سبحاته الشاعرة..

سيدتى لو كنت مكانك لأبغضت كل هؤلاء الذين ينادون بتحرير المرأة ويريدون أن يساووها بالرجل فى الحقوق والواجبات، فهم إنما يدفعون بمجذك إلى الانهيار. وهل تجددين هناك فائدة أو متعة فى أن تصبحى مساوية لرجل من المحامين أو الصيادلة؟

فخذى حذرک ياسيدتى.. لقد خلعت عنك شيئا من ما يترك وزال عنك بعض سحرك وفتنتك.. بيد أن الأمر لم يضع برمته من يدك، فمزال الرجال يقتتلون ويفتقرون ويتتحررون من أجلك.. غير أن شباب اليوم يجلسون فى عربة الترام ويتركونك تتأرجحين على السلم دون أن ينحوا لك عن المقاعد. فعبادتک سائرة فى طريق الزوال بنفس الخطى التى تسير بها العبادات القديمة.

أقول طبعاً العبادة لله وحده من قبل ومن بعد.

يبدو أن اناتول فرانس لم يفرغ بعد من اطراء المرأة فهو يرى على سبيل المثال، «الصالونات» مدرسة نافعة لرجال السياسة وأن التقاليد المتبعة فيها تكاد تكون مفقودة فى مجالسنا النيابية وأن - وهذا بيت القصيد - هذه الصالونات قوام الاجتماعات فيها إنما هو المرأة، فهى الملكة ذات السيادة، وكل ما يجرى فيها إنما هو منها، ولها

والمرأة هى العامل الجوهرى فى تهذيب الرجل: تبث فيه الفضائل اللطيفة وتعلمه الأدب والفطنة وتوحى إليه بتلك العزة التى تتحرك عن اتیان ما يضجر. إنها ترشد بعض الرجال إلى فن الظرف، وتهدى الجميع إلى الخلق الذى يجعلهم يتعدون عن الاضجار والاحلال.. ونحن نتعلم منها أن المجتمع أكثر تعقيدا وأدق تنظيما مما يتخيله العامة عادة أثناء مناقشتهم فى النوادى السياسية.

أترأه يقصد الأحزاب السياسية؟ ربما

ينتقل اناتول فرانس في حديقته إلى مكان آخر أو موضوع آخر.

فيقارن بين العلم والفن.. وموقفهما من «الحقيقة». فالفن لا يرمى إلى التعبير عن الحقيقة فهي موضوع العلوم ولهذا لا سبيل لأن نتلمسها في الأدب الذي لا يرمى ولا يمكن أن يرمى إلا إلى الجمال

ومادنا بصدد الأدب فإننا نقف عند ظاهرة أخرى هي ظاهرة الضحك، الذي ينقلب بكاء في الأدب إذا كان موضوعه إنسانيا. كقصة دون كيشوت التي يتجلى فيها الحزن المظمئن الضاحك مع أنها تسيل عبرات كثيرين من القراء.

إن اناتول فرانس يرى قصة «دون كيشوت» وقصة «كانديد» رسالتين في التسامح والرحمة.. والترفق والطيبة.

ويتحدث اناتول فرانس عن «القارئ» أو ما أسميه فن الرؤية.. إنه يرى قيمة الكتاب تتوقف على القارئ فهو الذي يسبغ عليه حرارة العاطفة أو فتورها.. بل إن مثل الكلمة في الكتاب كمثل الأنامل السحرية تلمس عصابة من أعصاب ذهننا لمس الريشة للوتر فتحدث لحنا يلائمها في الروح يتردد صداها طويلا.. ومهما كانت يد الفنان بارعة ملهمة فإن ما تثيره من لحن تتوقف قيمته على نوع أوتارنا الداخلية.

ويبدو أن اناتول فرانس لا ينتقل من الحديث عن المرأة إلا ليعود إليه. إنه يذكرني بالشريف الرضى حين خرج من بغداد فسأله السائرون ما تشتهي؟ فقال: أعود.

فقد التمس اناتول فرانس العودة إلى موضوعه الأثير حين عرض لكتاب صغير باللغة الألمانية اسمه: «تعليقات على هامش سفر الحياة» وضعه: «جرهرد أممتور» وهو يحوى الكثير من الحقائق الإنسانية فقد تناول المؤلف صورة الحياة المرأة في ظروفها العادية وقد أرقه أن هم البيت الذى يلقي على عاتق المرأة يأتي على جمالها ونشاطها، ويذهب حتى بمساس عظامها.. أرأيت إلى السؤال الخالد تواجهه الأم في حيرة يوميا: ماذا يجب أن نطبخ اليوم؟ أرأيت إلى الحاجة اليومية من كنس البيت وتنفيض الفراش وتنظيف الثياب، وإزالة الغبار عن أثاث المنزل؟ إن كل ذلك بمثابة نقطة الماء التى بدوام سقوطها تنتهى فى بطن ولكن فى يقين إلى الذهاب بروح المرأة وبجسمها.

فأمام نيران المطبخ تبدل تلك الفتاة الجميلة ذات البشرة البيضاء والحدود الوردية والضحكة الرنانة.. تبدل خلقا آخر فتصبح كالمومياء السوداء ذات المنظر الأليم.

فى هذا المطبخ المملوء بالدخان، بل فى هذا المعبد حيث يغلى اللحم فى قدره، تضجى ربة البيت بأعز ما تملك: الشباب والحرية والجمال والسعادة.

أترأه لهذه الأسباب، وغيرها بالطبع كانت آخر كلمة نطق بها فى حياته: «وأماه» وكأن كيانه كله تجمع فى شفتيه التى ترغمت بهذا النداء فى حنان رقيق وحب وثيق.

ويسفق اناتول فرانس على المرأة من العمل بأعبائه ويهتف فى ألم: (قليل من بنات حواء سيجدن معه الفراغ اللازم لإنماء حسنهن وذكائهن فى أسلوب جمالى متسق..

ويتساءل حائرا: ما مصير الحب إذن وسط هذا كله؟ إن مصيره يتكيف حسب قدرته على تملك القلوب.. وعدوه الألد هو الجوع.. ولا جدال فى أن المرأة ليست بمعزل عن الجوع.. فمن الراجح أن المرأة فى القرن العشرين ستقوم بأمر الطبخ كما كانت تفعل إبان القرن التاسع عشر، اللهم إلا إذا رجعنا، بفضل الاشتراكية، إلى العهد الذى كان فيه الصيادون يلتهمون فريستهم فى وحشية دون طهى أو شواء، والذى فيه كانت فينوس رمز الحب تجمع بين المحبين فى الغابات.

وفى إحدى شطحاته يقول اناتول فرانس:

لو كان لى من الأمر شىء لجعلت فترة الشباب فى نهاية الحياة.. فبعض الحشرات تنقلب فى تحولاتها الأخيرة إلى مخلوق يمتاز بأجنحة كبيرة ولا معدة، له، وما انقلبت إلى تلك الصورة المطهرة إلا لتحب ساعة من نهار ثم تموت.

هذا كله حتى لا يحط الجوع من شأن الحب.. ويسترسل اناتول فرانس ثم كنت أجعل للرجل والمرأة فى تحولهما الأخير، أجنحة لامعة كلها سناء، وأصرف عنهما هم الجوع فيعيشان على قطرات الندى وعلى الحب، حتى إذا أدركهما الموت متحابين وهكذا كنت أمنحهما الحب جائزة وتاجا لحياتهما الفانية.

ليت أناتول فرانس سمع أو وعى وصف القرآن الكريم للجنة قبل اربعة عشر قرنا بأنها جنة راقية صافية، أهلها (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قילהا سلا سلا).
 الجنة ليس بها شر بل نقاء الصدر (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار)
 الاعراف/ ٣.

فالصدر النقى قدمه على نعمة الأنهار تجرى من تحت عيون أهل الجنة.. والانهار الجارية امام العين (أنزه ما يلذ النظر وأطهره) كما يقول الشيخ دراز.

وحتى الطعام الذى يقول به أعداء الإسلام فى محاولة غمز، ليس طعام اللذة حيث يقول القرآن الكريم (فواكه. وهم مكرمون) أى غير محتاجين حفظا للجسم

أو ردعا للجوع بل هو تكريم وتنعيم فإن المفهوم الإسلامى لأهل الجنة أن الله يمن عليهم بأبدان لا تقبل الفساد أو الضعف أو الشيخوخة أو التحلل بدليل وعده لهم بالخلود وبالشباب.

حتى الزواج فى الجنة الاسلامية رفقة علوية (أزواج مطهرة) وزوجات (فيهن خيرات حسان) الرحمن ٧٠ و (قاصرات الطرف عين) الصفات ٤٨

وصف القرآن الكريم الجنة بأكرم وأجمل وأطيب الصفات ثم قال فى النهاية (ورضوان من الله أكبر).

والفنان الساكن فى اناتول فرانس يرى الشعر الجميل كريحة العواد تمر على أوتار القلوب الحساسة.. والشاعر لا يبت فى نفوسنا أفكارا جديدة، وإنما هى أفكارنا نحن التى تغرد فى الأعماق حينما يوقظها الشاعر الفنان.

وما فهم الآية الفنية إلا خلقها فى النفس من جديد. ولذلك فالأثر الفنى الواحد يتعكس على نفوس المشاهدين فى صور شتى مختلفة كل الاختلاف.

لذلك نرى الإنسانية لا تكاد تتعشق إلا الآيات الفنية أو الشعرية التى يحوط الغموض بعض عناصرها، والتى، بسبب هذا- تقبل مختلف التأويلات.

ويتحدث اناتول فرانس حديثاً ممتعا عن هوية جمع الكتب فهي في نظره هوية محمودة.. واذا كان الناس سخرُوا من الذين يقتنون الكتب ويتخذون منها حلية كبقية الحلى، واذا كان هؤلاء الذين يقتنون الكتب جديرون أحيانا بالسخرية، فإن هذه الحالة هي في الواقع حالة كل المحبين، سواء منهم من أحب الجمال أو من أحب الكتب. ولكنه على العكس يجدر بنا أن نغبطهم على أن زينوا حياتهم بلذة وديعة هادئة لا ينضب معينها.. وحسب الناس أنهم يوقعونهم في الحيرة والارتباك إذ يعترضون عليهم بأنهم لا يطلعون كل ما جمعوا من كتب، ولكن أحدهم يجيب دون تردد على هذا فيقولك (وأنتم، هل تأكلون في الأواني الخزفية الأثرية التي تجمعونها في المتاحف؟) وهل هناك أشرف من أن ينضد الانسان كتباً في مكتبته؟ حقيقة أن ما يقوم به مقتنى الكتب يشبه إلى حد ما ما يقوم به الأطفال على شاطئ البحر إذ يجمعون الرمال ويكرمونها، فيجهدون أنفسهم عبثاً وتأتى أمواج البحر فلا يلبث ما أقاموه أن ينهار.. ولا شك أن الأمر لا يختلف عن هذا بالنسبة لمجموعات الكتب واللوحات.. ولكن يرجع السبب في ذلك إلى ظروف الحياة وقصرها لا إلى الهواة أنفسهم.. فالبحر يزيل أكوام الرمال.. ووكيل المزد العلى يزيل مجموعات الكتب.. ومع هذا فليس هناك ما هو أفضل من تشييد أكوام الرمل في سن الطفولة وجمع الكتب في سن الكهولة.

وبعد فإن حديقة ابيقور إن هي إلا حديقة القارىء بما فيها من تأملات صوفية أحيانا.. فلسفية أحيانا.. انسانية أحيانا.. شطحه أحيانا.. هداة أحيانا.

وهى فى النهاية صورة حية لأناتول فرانس الكاتب والمفكر والناقد الاجتماعى.

وحسب الكاتب منزلة أن يكون صادقا مع نفسه ومع الناس.